1

قالت أمي :
عيناه زائغتان ..
سيعلن مصيبة

obeikan.com

obeikan.com

أسرتي لم تكن تكره جمال عبد الناصر ، كانت تحبه ، وكانت معجبة بإنجازاته الحقيقية ، لكنها لم تكن متيمةً به .

ولا كانت تعشق ثورته عشقًا خالصًا .

أبي أ.د محمد محمود السلاموني « أستاذ اللغات الأوربية القديمة ، اللاتينية واليونانية السابق ، بجامعة القاهرة ، ومن قبلها بجامعتي عين شمس والإسكندرية » ، كان يرى أن الثورة أفسدت الجامعة ، فمن جانب ـ تدخلت الثورة في الجامعة سرًا وعلانية ، بذهب المعز وبسيفه أيضًا ، وبتنظيماتها المختلفة وآخرها « الطليعي » ، فأضاعت استقلالها كمؤسسة طالما حمت العلم ، وحمت المثقفين ، بل حمت حرية الفكر مساندةً كل ما هو عقلاني ، وعلماني ، وعلمي « ألسنا نعاني الآن في المجتمع من كل ما هو ليس عقلانيًا ؟ ألسنا نعاني من تسلط سلفي فاشي ؟ ألسنا نعاني من تراجع دور المثقفين ، بل ومن محاولات قتلهم ... وأين ؟ في مجتمع يحضه دينه على التعلم ، وعلى أن الناس أدرى بشؤون دنياهم ، ويؤكد بتعاليمه أن لا رهبانية، ولا سلطة لرجال الدين في الإسلام ، بل ألسنا نعاني الآني من رجعية الجامعة نفسها ومعاداتها للفكر بالتكفير ، بدلًا من معارضتها الفكر بالفكر [1] .

ومن جانب آخر كان أبي يرى أن الثورة أضاعت هيبة الدرجات العلمية ، إذ حرص الضباط الأحرار الذين لم يدخلوا الجامعة أصلًا في سنى دراستهم ، على أن يدخلوها ضباطًا أحرارًا ، وأن يحصلوا منها على درجات علمية عليا ، ربما لتحقيق حلم قديم لم يستطيعوا تحقيقه في الماضي ، وربما ـ أيضًا ـ لإقناع عبد الناصر بأنهم قد غضوا الطرف، نهائيًا عن العودة إلى القوات المسلحة ، أو التدخل في أمورها ، الأمر الذي لم يكن يسمح به جمال عبد الناصر ، وكان المشير « المؤتمن » عبد الحكيم عامر ،

(١) لعل القارئ يتذكر قضية نصر حامد أبو زيد وقضية الدكتور حسن حنفي .

يرى دونه خرط القتاد ، هؤلاء الحريصون على دخول الجامعة ، حصل أغلبهم في - رأي أبي - على دكتوراهات وهمية ، استغلوا نفوذهم وريق البعض السائب في الحصول عليها ، وأذكر لأبي معارك كبيرة ضد هذا الاتجاه ، وأقول الآن ليته انتصر فيها ، « ولكن من ذا الذي كان يقدر عليهم إذا حاول ، لقد حاول أبي ودفع ثمنًا غاليًا لمحاولاته ـ لكنه لم يستطع الانتصار » .

وكانت أمي ـ من المربيات الفاضلات ـ وخالاتي يعشقن محمد نجيب رمزًا للتخلص من كابوس قديم ، وربما لم يغفرن أبدًا لجمال عبد الناصر الذي كان عن حق هو الثورة ، ما فعله في رأيهن باللواء المعزول ، وأيضًا وهن المتدينات ، كان في قلوبهن شيء لما فعله بالإخوان المسلمين من تشريد ، وسجن ، وتعذيب ، وخراب بيوت ، ضم « العاطل والباطل » ـ في نظرهم ـ وسرى في العائلات حتى درجات القرابة البعيدة ، مثلما تسري النار في الهشيم .

لم يكن يعشق عبد الناصر في بيتنا عشقًا غير أخي الأكبر ـ العاطفي ـ ولقد حاول ونجح في أن يجعلني أعشقه مثله ، إذ ربط بين شخصه في ذهني وحدود الوطن ، بل وخريطة أحلامه أيضًا .

والحقيقة أنني أحببت جمال عبد الناصر منتصرًا في ٥٦ ، يفرض إرادته ـ إرادتنا ـ على الأعداء ، بعد أن أمم قناة السويس ، أحببته زعيمًا للقومية العربية يحمل لواء كرامة العرب في عالم الاستقطاب بين قوتين عظيمتين خرجتا منتصرتين في الحرب العالمية الثانية ، ثم احتكرتا الاحترام والسطوة ، أحببته مثالًا للعزة الوطنية ، اشتراكيًا ـ بطريقته ـ « فقد كنت غرًا أحس أن الاشتراكية هي العدل ، وأصبحت شابًا وأمست شيخًا أراها عين العدل » .

طفولة عاشقة :

نحن جيل دخلت إليه السياسة ـ إعلامًا صاخبًا ـ في البيوت ، ولم يسع إليها .

في المدرسة الابتدائية ، كنت أحب ـ كزملائي ـ أن أكتب موضوعات إنشاء طويلة للغاية عن بور سعيد وعن وقفة الشعب المصري العظيم فيها في مواجهة العدوان الغادر ، وانتصار إرادة الشعب على الثلاثة الاستعماريين ، وهي حقيقة لا ينكرها إلا المرجفون ، وأول كلمات ألفتها وكانت في نظر أهلي شعرًا ، كتبتها عن محاكم الغدر العراقي ١٩٥٨م ، كما أسماها إعلامنا وهي التي سحل وصلب فيها عبد الكريم قاسم ـ قائد الثورة العراقية ـ الوطنيين وغير الوطنيين العراقيين ، كتبتها ضد الشيوعية « إ كنت مقتنعًا وقتها بإدانة جمال عبد الناصر المستمرة للشيوعية وفضحه لـ« حقيقة الشيوعية »[1] ، بل كانت أحب اللحظات إلى نفسي ، لحظة أمسك ميكرفون الإذاعة ـ بالمدرسة الابتدائية ـ معقبًا على خطب جمال عبد الناصر ، مقتطفًا منها ما كنت أحب أن يعلو به صوتي من كلمات الزعيم ، فتعلو حولي آهات الإعجاب وفرقعات التصفيق !!

سطوح المدرسة الإعدادية وجمال عبد الناصر :

من سطوح مدرسة علي عبد اللطيف الإعدادية ، « أمام غرفة الرسم ، هوايتي في تلك الأيام » ، أطللت كثيرًا ، من السور جميل التكوين ، لأرى جمال عبد الناصر الذي جاء ـ مرارًا ـ ليشيع جنازات المهمين ، من مسجد عمر مكرم ، المواجه للمدرسة ، لا أنسى أبدًا جنازة أحمد لطفي السيد ، أستاذ الجيل ، وحزني الطفل على الرجل الذي لم يتم مائة سنة ، فقد مات قريبًا منها ، دون أن يحقق معجزة الوصول إليها !

(١) كتاب عبد الناصر الشهير .

أيضًا لا أنسى جنازة صلاح سالم ، التي أحسست فيها بعبد الناصر متأثرًا للغاية وسط الجنازة الفخمة ، لكن أكثر ما أذكره من الجنازات ، كان ولم يزل ملامح عبد الناصر الجميلة ، رأسه المائل إلى الأمام ، بزته الواسعة أبدًا التي يتلاعب الهواء « ببنطلونها » كما يتلاعب بالأشرعة في البحر ، وحضوره الصارخ .

ولقد حدث لي في المدرسة الإعدادية أشياء لا يمكن نسيانها أيضًا .

ذات يوم زار المدرسة مفتش ليرى مدى استيعاب التلاميذ للميثاق الوطني ، وعندما أراد أن يدخل فصل المتفوقين ـ وضع الناظر يده على قلبه ، فقد كان عالمًا بأن المتفوقين لا يعرفون شيئًا عن المقررات التي تدخل في مجموع نهاية العام ، لكني أطلت رقبة الناظر في هذا اليوم ، رقبته التي دخل بها فصلنا وهي قد « السمسمة » ، هذا اليوم أعطاني وضعًا خاصًا في المدرسة ، إذ لم يعرف الناظر أبدًا ، إنني كنت أحب الميثاق للفصاحة وموسيقية تعبيراته .

يوم آخر لا أنساه ، يوم حصولي على المركز الأول في مسابقة عامة للمدرسة عن كتابة بحث عن معركة بور سعيد ، ففي هذا اليوم اضطر مدرس التاريخ أن يعترف أمام الناظر بأنه يظلمني في نمرة الشهر لأنني على حد تعبيره طويل اللسان لا أملُّ الاعتراض ، فاضطره الناظر إلى تصحيح شهادتي عن ثلاثة شهور ، هذا التصحيح الذي أعاد لي صورتي « المعجبانية » في مرآة أبي .

الإبراهيمية الثانوية وإصلاح الكون :

لا أدري لماذا اختارني حاتم قابيل « الآن أستاذ إدارة الأعمال بكلية التجارة جامعة المنصورة ، وهو شخصية فريدة ، ذات تجربة سياسية ، أجاد فيها أن يمسك بالعصا من طرفها القريب جدًا من الوسط ، وكان لم يزل أعقلنا في التعامل مع السلطة ، خصوصًا إذا كان غاضبًا من تصرفاتها » لا أعرف لماذا اختارني لدخول

منظمة الشباب الاشتراكي ، ولا كيف أقنعني بالانضمام إليها بعد أن كنت غاضبًا من إعلان لجنتها المركزية قبل تكوينها ، ومن تكوين لجنتها المركزية ـ أيضًا ـ بالاختيار وليس بالانتخاب ، وأذكر أن دخولي منظمة الشباب كان عاملًا فارقًا رسم خطوات حياتي منذ دخلتها حتى اليوم .

هل اختارني لأنه كان زميلي في المدرسة الإعدادية، ورأى فيَّ ما رآه الناظر ؟ « رأى فيَّ خبيرًا في الميثاق الوطني » .

هل اختاري لأنني كنت مثله ـ في ثانوي ـ صديقًا لمكتبة المدرسة الإبراهيمية « التي لم أر مكتبة أكثر منها ثراء حتى اليوم » ، أو لأنني أصدر مجلة حائط فيها اهتمام كبير بالسياسة القومية ، كنت سعيدًا بها لأنني أثبت فيها قدرتي على رسم جمال عبد الناصر ورسم الملك فيصل والملك حسين أيضًا ، عدوي عبد الناصر في ذلك الوقت ، أم لأنني كنت أفوز في مسابقات الشعر في المدرسة، وعلى مستوى الجمهورية بقصائد سياسية عن فلسطين ، وعن الاشتراكية العربية ، وضد الإخوان المسلمين [1] .

بعدما قبض جمال عبد الناصر على تنظيم سيد قطب وشهر به عام ١٩٦٥، لا أعرف ، لكنه اختارني وأقنعني ، وأوقعني في حيرة شديدة في البيت .

أبوك أم جمال عبد الناصر ؟!

عندما دخلت إلى أبي في مكتبه ، أطلب منه السماح بأن ألتحق بمعسكر المنظمة في حلوان ، تغيرت ملامحه وسألني :

(١ أذكر واقعة طريفة حدثت في تلك المسابقة الشعرية التي ألقيت فيها قصيدة تندد بالإخوان المسلمين « أعداء الله والدين » « هكذا كنا مقتنعين في تلك الأيام » ، في تلك المسابقة لم أفز بالمركز الأول « كعادتي في سني الثانوي » ، وفوجئت بناظر المدرسة الأستاذ الفاضل حسن السمرة ، يصعد إلى المنصة ، ويصمم على أن تعلن اللجنة فوزي بالمركز الأول ، وقد كان بعدها قال لي الأستاذ الفاضل : « حد ـ والنبي ـ يقول في مسابقة شعر لبتوع العربي والدين قصيدة ضد الإخوان المسلمين !! » .

لماذا تريد الالتحاق بالمنظمة ؟

لأنني أريد أن أكون ممن سيمسكون بدفة الأمور في هذا البلد ، مستمرين بها منتصرة .

بهذا أقنعني حاتم قابيل ، ولا أبالغ لو قلت : إنه أقنعني بما هو أكثر ، بأننا سنصلح الكون !!

وفاجأني أبي بسؤال :

لو أرادوا منك أن تبلغ المباحث عن أبيك ، هل تبلغ عنه ؟

لن يطلب مني أحد ذلك .

أجب عز سؤالي .

لا ، طبعًا .

ابتسم أبي متسائلًا :

هل تحب جمال عبد الناصر أكثر أم تحب أباك أكثر ؟!

قلت صادقًا :

أحب أبي أكثر .

قال أبي وهو يشيح بوجهه بعيدًا عني :

تذكر أنك قلت هذا ، واذهب إلى المنظمة كما تريد .

وأذكر الآن أنني لم أفهم مغزى حديث أبي ـ ذلك ـ إلا بعد شهور من التحاقي بالمنظمة .

كانوا يعلموننا كيف نحمي النظام !!

لم يؤثر في حياتي شيء أكثر من أبي وأمي ومنظمة الشباب ونكسة يونيو ١٩٦٧م ،

لقد كانت تجربتي في منظمة الشباب تجربة شديدة الثراء ، إن لم يكن بالفعل وحده ، فبرد الفعل ـ أيضًا .

دخلت المنظمة أصغر من أن أكون ناصريًا ، دخلتها معجبًا بجمال عبد الناصر ، أحبه لدرجة العشق ، وخرجت منها في نفس العام عام ١٩٦٧ م مقدرًا لجمال عبد الناصر ، عارفًا بفضله ، لكنني كما دخلتها خرجت منها ، لم أكن ولم أصر ناصريًا .

والحقيقة ـ التي لا أماري فيها ـ أن المنظمة صنعت جيلنا ، وأن البعض من جيلنا لم يسمح لها بأن تحطمه! .

في المنظمة تعلمنا الكثير ، على أيدي مناضلين عظماء ، ومناضلين لم يكونوا كذلك ، تعلمنا على يد الدكتور محمود الخفيف ، والدكتور إبراهيم سعد الدين ، والدكتور لبيب شقير ، وتعلمنا ـ أيضًا ـ على أيدي د. رفعت المحجوب ، د. طعيمة الجرف « إذ كانت لهم أياد وقتها » .

في المرحلتين الأولى والثانية تعلمنا الاقتصاد كطلبة الجامعة المتخصصين وتفوقنا في الاقتصاد السياسي .

وفي المرحلتين الأولى والثالثة تعلمنا السياسة بسيطها ومعقدها .

وفي الثالثة أيضًا ، تعلمنا النظريات والأيديولوجيات الكبرى .

وفي الثالثة ـ فوق ذلك ـ « وبعضنا في قبرص » تعلمنا كيف نحمي النظام ، « فهل دار في خلد النظام الذي ربّانا لحمايته أننا سنريه النجوم بعد ذلك في عز الظهر ؟ » .

والشيء الطريف ـ ستأتي طرافته أو سخافته فيما بعد ـ أنني في المرحلة الثالثة حصلت على جائزة « عدد كبير من الكتب » لأنني نقضت (خلِ بالك من نقضت هذه)، ولم أكتفي بنقد نظرية كارل ماركس الفلسفية « ليست الاقتصادية بالطبع »

المعروفة بالمادية الجدلية .

المبعوث .... ضاع منه الكلام ونساه .

وفي المنظمة بين المرحلتين الثانية والثالثة ـ فيما أذكر ـ حضرنا ـ بعض أعضاء المنظمة ـ مؤتمر المبعوثين كمنظمين لإعاشتهم ، ورحلاتهم ، أثناء انعقاد المؤتمر ، وكمناقشين سياسيين مُدَربين نحاول إقناعهم بإنجازات النظام ، وبكذب هؤلاء الذين يتخرصون عليه .

كنا متحمسين للنظام ولم يكن عدد منهم متحمسًا له ، وفي هذا المؤتمر رأينا كيف أحرج غير المتحمسين للنظام دكتور لبيب شقير ، وكمال رفعت ، وعلي صبري ، ولم ننتبه ـ وقتها ـ لأن جمال عبد الناصر ، عندما جاء ليقابلهم قمعهم بالخوف .

رأينا منهم من فتح فمه فلم تخرج من فمه كلمات من فرط رعبه ، لم يخرج غير هواء جوفه « كان إذا لم تخني ذاكرتي رئيس وفد مبعوثي مصر إلى هولندا » ، وعندما أصر عبد الناصر وقد حاصره بعينيه القويتين على أن يتكلم المبعوث وبسرعة ، اختفت الكلمات كلها من عقل ولسان المبعوث الغارق في عرقه ، فقال :

سيادة السفير بيسلم على سعادتك « وكان يقصد سفير مصر في هولندا فيما أذكر » .

وضحك عبد الناصر ، مما زاد في ارتباك المبعوث ، ثم قال جمال عبد الناصر :

هل تحملت الدولة مصاريف سفرك وإقامتك ، لتقول لي هذا الكلام ؟!

وسمعنا إذ نودي على واحد من وفد المبعوثين إلى ألمانيا الغربية ، ولعلي لا أكون قد نسيت ، فإن ما أذكره أن من نودي عليه ذاك كان خبيرًا جيولوجيًا ، تلجأ إليه ألمانيا ـ وهو المصري ـ في مفاوضاتها التي تتعلق بهذه الأمور « الجيولوجية » في نطاق السوق الأوروبية المشتركة ، ولما وقف وكان قصيرًا مدكوكًا ، ذا صلعة تعد بأنها ستتكامل مع الأيام ، قال له جمال عبد الناصر :

أنت الرجل الثاني بعد سعيد رمضان .

وسعيد رمضان كان إخوانيًا « الإخوان وقتها في مصر كانوا في السجن » وكان قد غادر مصر في الخمسينيات وترأس التنظيم العالمي للإخوان الذي يحارب عبد الناصر ، وعندما ارتبكت القاعة واستشعرت خطرًا قادمًا لا محالة مال جمال عبد الناصر على « علي صبري » قائلًا وهو يبتسم ابتسامته الساحرة المخيفة المقتضبة، وبصوت من الممكن سماعه في القاعة :

برضه يسافر يا علي .

وكان يقصد أنه لن يعتقل .

لكن الحادث برغم العفو الثوري السامي ، تسبب في أن لسان المبعوثين هو الذي اعتقل داخل أفواههم من تلك اللحظة .

ثم تكلم عبد الناصر عن إنجازات الثورة ، التي يجحدها الغربيون ، وقام الجميع لتلتقط لكل وفد على حده ، صورة تذكارية مع الرئيس انتهى بعدها المؤتمر .

ثم فهمت مغزى تحذيرات أبي :

وفي المنظمة بعد المرحلة الثالثة كنت أجلس في فصلي ، وأعلنت معارضتي ورفضي لاستعمالنا قنابل الضغط في اليمن التي عمدنا إليها لتطهير كهوف الجبال من المناوئين ، تلك القنابل التي تفجر الدم من آذان وأفواه من تستعمل ضدهم (وتقتلهم بالقطع) .

بعدها بأيام طلبتني المباحث العامة بباب اللوق ، وأذكر أن أخذني إلى هناك أستاذ التاريخ في مدرستي « كنت أُجله حتى تلك اللحظة » وفي المباحث حذروني من التمادي بعد أن أخافوني بالطبع ، لكني في الحقيقة « التي لا تصدق » كنت خائفًا

من أبي ، غير عارف ماذا سأقول له بعد أن تأخرت عن العودة إلى البيت في ميعاد انتهاء المدرسة « القريبة من بيتنا في جاردن سيتي في ذلك الوقت » .

يومها عرفت أن زميلًا متفوقًا في فصلي ، « منظماوي » مثلي ، هو الذي أبلغ عني ، ولحظتها تذكرت وفهمت ما عناه أبي حين سألني :

لو أرادوا منك أن تبلغ عن أبيك ، هل تبلغ عنه ؟!

لقد فعلها صديقي ، وأبلغ عن صديقه الأثير .

وقالوا : أنت عضو في تنظيم ماركسي سري ؟

وفي المنظمة أيضًا أصبحت مسؤولًا عن التثقيف في مدرستنا ، وفي المكتب التنفيذي لقصر النيل ، وأصبحت عضوًا في لجنة العشرين بالاتحاد الاشتراكي عن المدرسة وكانت لجنة العشرين تجتمع بمكتب ناظر الإبراهيمية الأستاذ الجليل حسين السمرة ، وكان يقدم لها كل التسهيلات ، ورغم هذا هاجموه في المكتب التنفيذي لأنه رجعي ، مضاد للثورة ، يركب مرسيدس ، ودافعت عنه أنا وحاتم قابيل على ما أذكر ، وتساءلت عمن أبلغ عن الناظر ؟

ساعتها أيضًا تأكد فهمي لما عناه أبي بسؤاله .

وفي المنظمة أيضًا ، تعرفت في المرحلة الثالثة على إنسان جميل ، اسمه كاسمي « هشام » ، « للأسف نسيت بقية الاسم » ، كان يقابلني مرارًا ، وكان يكلمني كثيرًا في الفلسفة والاقتصاد والسياسة « كدأبنا جميعًا في ذلك الوقت » ، ثم فوجئت باستدعائي للمباحث العامة ـ للمرة الثانية ـ بعد ذلك ، وفي المباحث عرفت أنهم قبضوا على أعضاء بارزين في المنظمة « وأعضاء عاديين » بحجة أنهم شكلوا تنظيمًا ماركسيًا داخل المنظمة « أحد المقبوض عليهم كان عضوًا في اللجنة المركزية

للمنظمة » ، وكان هشام ـ صديقي ـ ضمن المقبوض عليهم ، وجاؤوا بي لأنني صديقه ، ولأنني اتهمت بأنني عضو في التنظيم الشيوعي المقبوض عليه ولم يشفع لي أنني حصلت على جائزة في المرحلة الثالثة لأنني نقضت الفلسفة والفكر « الماركسي » ، « هل يذكر القارئ أنني قلت قبل ذلك أن طرافة الأمر أو سخافته ستجيء بعد ذلك ، ها هي ذي قد جاءت ، واتهموا بالماركسية من أعطوه جائزة لأنه في نظرهم نقض الفكر الشيوعي الفلسفي » يومها أصابني خضة من المنظمة التي بدأت تأكل أبناءها الذين سيستمرون بمصر منتصرة .

ثم انتقمت في تقرير رأي عام !!

وفي المنظمة أيضًا جاءني لوم لأنني لا أكتب « تقرير رأي عام » وكانت هذه التقارير تتضمن رأي الناس ، الشائعات ، النكت ، وغير ذلك ، فكتبت تقريرًا قلت فيه - عنادًا : إن الناس يرون أن السيد علي صبري « وكان أمينًا عامًا للاتحاد الاشتراكي ورئيسًا للوزارة ـ وقتها » ، مسيطر على البلد ، أما الشائعة فكتبتها : « أن السيد علي صبري يضعف الجيش بتقوية الاتحاد الاشتراكي ، بغرض عزل عبد الحكيم عامر الذي ينتويه جمال عبد الناصر « لم يكن الأمر يخلو من حقيقة » ، أما النكتة فكتبتها أن السيد علي صبري اشترى المكاتب التنفيذية « التي تدير أمور الاتحاد الاشتراكي » لكي يذاكر عليها أبناؤه في البيت ، أما الأنكت فهو أن أحدًا بعد هذا التقرير لم يطلب مني كتابة تقرير رأي عام أبدًا! .

ليته فهم مغزى السؤال .

وفي المنظمة سألنا جمال عبد الناصر ، من الذي سيستمر بالثورة بعده ؟ فقال جمال عبد الناصر ردًا على تساؤلنا :

أنتم ، أنتم الذين ستستمرون بالثورة بعد جمال عبد الناصر .

إذ لم يكن جمال عبد الناصر وقتها يعلم ما يخبئه له ولنا أنور السادات ، أنور السادات الذي خبأه لنا جمال عبد الناصر !.

عند الامتحان ... انتكس الوطن .

كان العام الدراسي ٦٦ـ ١٩٦٧، يوشك على الانتهاء وكنا نستعد مرتعدين لامتحان الثانوية العامة « ذلك البعبع الشهير » ، والذي كان سيبدأ في ١٠ يونيو ١٩٦٧م ، القاهرة كانت صاخبة منذ ما يقرب من شهر طويل ، قبل ذلك الوقت ، والإذاعة والتليفزيون يصرخان ، والناس لا وقت لديهم لأي شيء غير الكلام عن معركة التحرير المقبلة ، كان مذاق حفل أم كلثوم يوم الخميس ١ يونيو ١٩٦٧م ما زال يسري كالعسل في حنايانا .

أغنيتها الجميلة التي ألفها لها صلاح جاهين « راجعين بقوة السلاح / راجعين نحرر الحمى .... راجعين كما رجع الصباح / من بعد ليلة مظلمة » ، أغنيتها تلك كانت لا تتوقف عن الرنين في آذاننا وفي القلوب ، جنبًا إلى جنب ـ أو في عناق ـ مع أحلى أداء قدمته أم كلثوم في عمرها المديد الثري لرائعة شوقي « سلوا قلبي » ، القصيدة التي انتزعت التصفيق أكثر من مرة ، والآهات عشرات المرات ، والصرخات المدوية النارية عندما وصلت « الست » إلى البيت الشهير في القصيدة :

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابًا

أيضًا كان الحديث الصحفي العالمي لجمال عبد الناصر ، في ٢٨ مايو ١٩٦٧ ، والذي أذاعه التليفزيون ، ما زال وقتها يملؤنا بالثقة ، ويرعش جوانحنا بفرحة تنتظر التحرير ، « أنا مش خرع زي مستر إيدن » ، « أين الكيمياء والفيزياء والرياضيات من كل هذا ؟ » .

كان خوفنا يدمدم في حنايانا من امتحان الثانوية العامة ، ونحن ننهي استعدادنا له ،

وسط صخب مصري وعالمي يقتحمان الحوائط ، ويستقران على مكاتبنا فيخفيان السطور ، وفجأة انقضت الطائرات الإسرائيلية في صباح اليوم الخامس من يونيو ١٩٦٧م .

لم تصب الطائرات الإسرائيلية طائراتنا الرابضة كبطات لا يعرفن أن صائدًا يستلل من مكمنه ـ فحسب ـ إليهم، أصابت الطائرات حلمنا ، أماننا ، مستقبلنا ، دنيانا ، وأماكن غائرة في نفوسنا ، وأدمت القلوب والعيون ، كانت نكسة ، « كما سماها محمد حسنين هيكل » .

من التنحي إلى السفارة الأمريكية :

أيام من النكسة لا ولن تمحى من ذاكرتي ومن ذاكرة الجيل ، الساعة الخامسة فجرًا يوم ٨ يونيو ١٩٦٧م ، تم استدعاؤنا ـ أعضاء منظمة الشباب وأعضاء الاتحاد الاشتراكي ، ذهبنا في غبشة الفجر إلى المدرسة الإبراهيمية ، في الاجتماع قال لنا المسؤولون عنا : إن قواتنا تراجعت تكتيكيًا إلى خط الدفاع الثاني عند الممرات وهي تستعد لانقضاضة كبرى ، استشعرنا الخطر الشديد ، كيف ؟ لم يكن ذلك كلام الإذاعة والتليفزيون والصحف ، وطلب المسؤولون منا لحظتها أن نعمد إلى إخفاء صوت المعركة في الشعب ، وأنه يتوجب علينا أن ننزع كل الملصقات التي تتكلم عن الحرب من الحوائط في شوارعنا وأن نعد الناس لمعركة طويلة ، وألا نسمح لأعداء الشعب بـ« الشوشرة » ، أذكر لحظتها أن صوت نحيب قد بدأ خافتًا راح يتعالى في كونشيرتو حزين بكريشنيدو متصاعد الصخب ، عجزت إرادتنا عن كبح نغماته العالية ، ثم بدأنا نهتاج ونتصايح في وجوههم ، وليس في قلوبنا إلا أن هؤلاء ومن هم فوقهم أضاعوا البلد ، كنا قد فهمنا الأمر « برغم هذا لم نصدقه إلا في اليوم التالي » ، ووسط صرخاتنا أعلنا حل منظمة الشباب ، وإننا لن نعود إليها أبدًا ، كنا قد دخلنا الاجتماع في غبشة الفجر ، ثم خرجنا والدموع في أعيننا وقد صار الفجر ظلامًا حالكًا .

يوم آخر لن ننساه ، يوم التنحي ، جلسنا كلنا في البيت أمام شاشة التليفزيون في الموعد ، وظهر لنا جمال عبد الناصر :

صاحت أمي :

فيه مصيبة سوداء ، أنا عمري ما شفت جمال عبد الناصر بالشكل ده .

أردنا أن نسكت أمي لنسمع ديباجة الرئيس قبل أن يدخل في المهم ، لكنها لم تسكت ، قالت وعيناها تؤكدان خيبة أمل عظيمة :

خدوده مدلدلة ، وعينيه زائغة ، ح يعلن مصيبة .

قامت أمي لتغادر الحجرة وهي تغمغم :

أنا مش ح أسمع الخطبة دي .

لكن أمي عادت بعد ثوان معدودة ، واستندت إلى باب الغرفة تسمع معنا تنحي جمال عبد الناصر عن المسؤولية لزكريا محيي الدين الذي يستطيع التفاهم مع الغرب .

وصحنا فاشتبكت صيحتنا مع المصريين كلهم :

هو خلاص .... خلاص .

مرت دقائق ورن جرس البيت ، انزعج الكل وكأنهم شعروا مثلي أن اليهود والأمريكان يدقون علينا الباب في تلك اللحظة .

وخرجت لأفتح ، لم أجد أمامي أحدًا ، لكن صوت أحمد عادل مصطفى « عضو المنظمة ، زميلي الذي أتمنى لو أعلم أين أراضيه الآن » جاءني من بسطة السلم التي تفصلني عنها اثنتا عشرة سلمة لأسفل :

فيه أوامر من المكتب التنفيذي بتفريق أي مظاهرات يقوم بها الناس .

صحت فيه غاضبًا « ليس منه بالطبع » :

أنا لا آخذ أوامر من المكتب التنفيذي .

قال أحمد عادل وهو يلتهم السلالم نازلًا :

أنا معنديش وقت للمناقشة يا هشام ، لازم أبلغ الكل .

« قيل فيما بعد على لسان العباقرة : أن الاتحاد الاشتراكي هو الذي نظم المظاهرات ، وأقولها بصراحة: لو كان الاتحاد الاشتراكي يستطيع أن ينظم مظاهرات كهذه ـ لما حدثت النكسة من أصله ، لو كان الاتحاد الاشتراكي يستطيع أي شيء ، لما نفخ السادات في أعمدته ـ تلك النفخة التي أسماها ثورة التصحيح في مايو ١٩٧١ ـ فذراهم في الهواء ، دون أن يبكي عليهم أحد » .

أغلقت باب الشقة وأنا حائر ، وإذا بصوت هادر ، فائر ، عنيف يأتيني من الشباك المطل على شارع القصر العيني ، عدوت لأطل على الشارع ، لحظتها رأيت مصر في شارع القصر العيني ، نعم مصر ، وانفجرت دموعي ونزلت إلى مجلس الشعب ، أهتف مع الباقين ، بأننا لم ننته بعد ، أننا لن ننتهي أبدًا .

يوم ثالث لا أنساه ، عشرة يونيو ١٩٦٧م .

في هذا اليوم قررنا « مجموعة ـ لا يعرف الواحد منها معظم الآخرين ـ التقت في شارع القصر العيني ، أمام شارع مجلس الأمة ، أن نهاجم السفارة الأمريكية لنعلن للأمريكان أن يدهم الطولى لن تتحكم في مصر ، وأنهم لو حاولوا فسوف يدفعون الثمن غاليًا ، أغلى مما يتصورون ، كنا نريد أن نعلن للأمريكيين ، أننا لسنا خائفين منهم ، وأن عليهم هم أن يخافوا منا ، لكننا وبعد معدودات ، كنا نحن أسرى لخوف غريب مرير لم نعهده من قبل .